تجليات الوظيفة الإفهامية في القرآن الكريم

سورة المزمّل نموذجًا

Manifestations of the explanatory function in the Holy Quran
Surat Al- Muzammil as a model

الدكتور وجدي قطب
alwathekqotob@gmail.com

The purpose and purpose of this research is to reveal the manifestations of the Conative function in the Qur'anic discourse, which is one of the language functions identified by Roman Jacobson.

The researcher has taken from Surat Al-Muzammil as a model to uncover the effectiveness of this linguistic function and explain the purposes of its use in the Holy Qur'an.

Keywords: functions of language, Roman Jacobson, Discourse, Linguistics, Communication.

المقدمة

يُعدُّ القرآن الكريم أسمى خطاب جاء بلسان العرب، وعندما نزل القرآن بلغتهم، فإن هذا يعني أن القرآن الكريم قد راعى، في نسيجه اللغوي، نظام العربية، وانضبط بقواعدها، واستخدم ألفاظها. وقد أجمع علماء الإسلام، قديمًا وحديثًا، على أن القرآن الكريم حاز، من الخصائص والسمات، ما يرفعه ويسمو به على النصوص البشرية والكلام العادي جميعًا.

يتفرّد القرآن الكريم، عن غيره من أنواع الخطاب، في بلاغة نظمه، وسلاسة أسلوبه، وصحة معانيه، ورقيّ مقاصده، وفصاحة ألفاظه، وبديع تركيبه، وتكامل موضوعاته على تنوعها، ونجد ذلك من أول القرآن الكريم إلى آخره، فقد جاء على سمت واحد لا تفاوت

فيه، لأن المرسل واحد، والرسالة واحدة، والمقصد واحد، وصدق رب العزة بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (١).

وقد تمثّلت الغاية الأولى للقرآن الكريم في التأثير في الناس، كما كان الحال مع الشعر والشعراء قبل نزول القرآن الكريم، ولا غرو في أن تأثير القرآن الكريم، في النفس، كان أكبر، وأعمق، وأبقى أثرًا من الشعر، ولهذا، فقد وصف العرب، وهم أصحاب لسان وفصاحة، لغة القرآن الكريم بأنها سحر حلال، وذلك في إشارة قوية إلى الجانب التأثيري للقرآن الكريم. وقد ظهر هذا الأثر عند مشركي قريش أيضًا، ومنهم الوليد بن المغيرة الذي تأثر عندما سمع القرآن وقال قولته المشهورة التي سجلها لنا التاريخ(٢)، لتكون شهادة دالة على عظمة القرآن حتى من مشرك أدرك بقريحته الفذة، وذائقته اللغوية النقية الصافية التي سمت على سائر الكلم، وبحق، لقد كان القرآن الكريم مصدر دهشة للعرب، رغم أن حروفه وألفاظه ومعانيه نزلت بلغتهم، لكنّ الإعجاز كان في نظمه وأسلوب صياغته، بَدءًا بالأصوات، ومرورًا بالتركيب الصرفي والنحوي، وانتهاءً بالبنية الدلالية.

مدخل

كانت اللغة، مذ وُجد الإنسان، حلْقة وصل بين بني البشر، خاصة بعد أن كثرت احتياجاتهم النفسية والمادية؛ لأن اللغة ما تزال، بقدرة واقتدار، الوسيلة الأنجع التي يمكن بوساطتها إحداث تواصل سليم يمكّن كل فرد من التعبير عن أفكاره، وبث مشاعره، والإبانة عن حاجاته. وهذا التواصل يتم بوساطة مجموعة من العناصر التي لا يمكن أن تتمّ العملية التواصلية، بشكل فاعل، إلا من خلالها، وهي المرسل، والمستقبل، والرسالة، وقناة الاتصال، إن وجود هذه العناصر، مجتمعة، هو الذي يضمن تحقق عملية تواصلية ناجحة، فاللغة ظاهرة اجتماعية "تخدم غرض التفاهم المتبادل...وذات أهمية في عملية التواصل"(٣).

لقد درس العلماء وظائف اللغة(٤)، أي لغة، وتوصلوا إلى أن هناك وظائف محددة تقوم بها، ولولا هذه الوظائف لما كان للغات أي أهمية تُذكر، وممّن ذهب إلى ذلك في هذا المجال، "رومان جاكبسون"(٥) الذي قرّرَ أن الوظيفة الرئيسة للغة هي التواصل،

ويقصد بقوله "الوظيفة"، ذلك الدور الذي يقوم به أي عنصر لغوي في بنية اللغة، بحيث تكون الوظيفة "حلقة وصل تربط العناصر اللغوية بعضها ببعض، تنجم عن ائتلاف مكونات الجملة في بنية نحوية، وانتظام سير التراكيب في نظام معاني النحو يسهم في تقريب الفكرة إلى الأذهان بفضل تركيب سليم في مبناه دال على نسق في معناه"(٦)، فكل عنصر من العناصر اللغوية يندرج ضمن نظام، ويقوم، إضافة إلى العناصر اللغوية الأخرى، بحمل الرسالة التي قصد المرسل، من خلالها، التأثير في المتلقي، وهذه، في حد ذاتها، من أهم وظائف اللغة، أيًّا كانت هذه اللغة.

وقد قسم "جاكبسون" وظائف اللغة إلى ستة أنواع(٧)، وجعل كل نوع منها يقوم بوظيفة لغوية محددة، فهناك الانفعالية، أو التعبيرية التي ترتبط بالمتكلم، والوظيفة الشعرية التي تتعلق بالرسالة، والسياقية، أو المرجعية التي تحدد المرجعيات، والميتالغوية، أو اللغة الواصفة التي تستخدم لوصف قانون اللغة، والوظيفة الاتصالية التي تتمحور حول القناة، وأخيرًا الإفهامية، أو التأثيرية التي تتمركز حول المرسل إليه.

إن العلاقة، بين هذه الوظائف الست، غالبًا ما تكون متداخلة في أثناء العملية التواصلية، ولكن، يتمّ التركيز، في بعض الأحيان، على وظيفة دون أخرى بحسب الهدف من العملية التواصلية، وهذا ينعكس، بالضرورة، على بنية النص، أو الخطاب(٨)، فلو نظرنا إلى الأعمال الأدبية الإبداعية، لرأينا أن الوظيفتين الشعرية، والانفعالية تبرزان، بجلاء، فيهما، ولو كتب أحدهم خاطرة، لرأينا أن الانفعالية، تحديدًا، تظهر، بوضوح، أكثر من غيرها في النص، أما في كتب شرح قواعد اللغة، فسنجد أن الوظيفة الميتالغوية هي سيدة الموقف، وهذا ما سمّاه جاكبسون "القيمة المهيمنة"، وهي تلك القيمة التي تُعدُّ "عنصرًا بؤريًّا للأثر الأدبي، إنها تحكم وتحدد وتغير العناصر الأخرى، كما لو أنها تضمن تلاحم البنية"(٩)، فالقيمة المهيمنة عند جاكبسون تشكل بؤرة داخل النص، ويكون لها الحق في التأثير في عناصر النص الأخر، وبوساطتها يلتحم النص في ظل سيطرة القيمة المهيمنة عليه.

أما في القرآن الكريم، وبسبب تنوع الموضوعات التي يتضمنها، وانفتاح هذا الخطاب على الزمان، والمكان، والماضي، والحاضر، والمستقبل، فإن مسألة طغيان وظيفة لغوية على أخرى تظل مسألة نسبية، ويرجع ذلك إلى طبيعة الموضوع الذي يتمّ تناوله في السورة القرآنية، والسياق الذي وردت فيه، وطبيعة ذلك الموضوع، هي التي تحدد مدى بروز وظيفة لغوية معينة أو أكثر.

الوظيفة الإفهامية:

تتمحور الوظيفة الإفهامية حول المتلقي، فهي عملية يحاول المرسل بوساطتها إفهام المرسل إليه، أو التأثير فيه في أثناء العملية التواصلية، وتتأتى أهمية المرسل إليه في عملية الاتصال من كونه أحد الأطراف الرئيسة في هذه العملية، ولا شكّ في أن المرسل إليه يُعدُّ عنصرًا مهمًّا من عناصر فهم العملية التواصلية، وتفكيك الخطاب اللغوي وتأويله؛ لأن "طبيعة المتلقي حاضرة حضورًا بيّنًا في العملية الإبداعية"(١٠).

وقد تسمى هذه الوظيفة بمسمّيات أخر، كالوظيفة التوجيهية، أو الإيعازية، أو الإشراكية، أو الندائية، أو التأثيرية، أو التعبيرية، وكلها تحمل، في فحواها، دلالة واحدة، تتمثّل في عملية التأثير في المرسل إليه، وحثّه على القيام بعمل محدد، علمًا بأن بعض الباحثين حاولوا التفريق بين الإفهامية التي نُظر إليها من الناحية العقلية، والتأثيرية التي نظر إليها من الناحية العاطفية(١١)، ولكنّهما، من حيث علاقتهما بالمرسل إليه، سيّان؛ لأن " الخطاب ذو الإستراتيجية التوجيهية يعد ضغطًا وتدخّلًا، ولو بدرجات متفاوتة، على المرسل إليه، وتوجيهه لفعل مستقبلي معين"(١٢).

وقد تنبّه علماؤنا الأجلّاء إلى هذه الوظيفة اللغوية؛ أي الإفهامية، فها هو ذا الجاحظ يقول: "والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته...لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام"(١٣)، والإفهام يتضمن، بالضرورة، من أجل وقوعه، وجود تأثير من المرسل في المرسل إليه، وكلام الجاحظ يوحي بوظيفة مهمة من وظائف اللغة، وهو

التأثير في الآخرين، وفي هذا المعنى يقول التوحيديّ، في أثناء حديثه عن معنى الخطاب، بأنه "الكلام المقصود منه إفهام من هو متهيء للفهم، وَعرَّفهُ قوم بِأَنَّه ما يُقصَدُ بِهِ الإفْهَامُ أَعمُّ من أَن يكون مَنْ قَصَدَ إفْهَامَهُ مُتَهَيِّئًا أَمْ لَا. قِيلَ: وَالْأَوْلَى أَنْ يُفَسَّرَ بِمَدْلُولِ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ(١٤)، و نستشفّ من كلام التوحيدي أن العملية التواصلية يُقصد منها الإفهام، والأصل في المتلقي أن يكون على استعداد من أجل قبول الرسالة، وهذا يمثّل ما ورد عند جاكبسون في أثناء عرضه للوظيفة الإفهامية للغة.

وتكون العلاقة بين المرسل والمرسل إليه في أثناء العملية التواصلية، وتحديدًا، حينما تبرز الوظيفة الإفهامية بجلاء- تكون علاقة عموديّة؛ لأنّ الغاية القصوى من هذه الوظيفة هو التأثير في المتلقي، كما أسلفنا، وفيما يتعلق بهذه الدراسة، يمكن لنا، أن ندرس الخطاب القرآني، بوصفه عملية تواصلية تمثل شكلًا من أشكال التواصل بين طرفين، الذات العلية؛ أي الله -عزّ وجلّ-، والمجتمع البشري عمومًا، والنبيّ ﷺ خصوصًا، وتهدف هذه العملية التواصلية، إلى بثّ رسالة تؤثر في المتلقين، وتغير من أفكارهم، أو سلوكياتهم، وبهذا "يكون استعمال الإستراتيجية التوجيهية نابعًا عن علاقة سلطوية بين طرفي الخطاب"(١٥)، وهذا النوع من الخطاب "يحتوي رموزًا، ودلالات، وإيحاءات، وقدرة على تحقيق الإفهامية، تستطيع أن تثير، لدى القارئ، ما يمكن أن يعد نشاطًا إبداعيًّا مؤثرًا، يستطيع بوساطته تلقي النص وفهمه"(١٦).

وقد وضّح جاكبسون أن الوظيفة تتجلى في أسلوبين لغويين تركيبيين هما الأمر والنداء(١٧)، إضافة إلى الاستفهام، والتمني، والنهي، والتحذير، والإغراء، وضمائر الخطاب، وغيرها من الوسائل اللغوية التي تهدف إلى التأثير في المرسل إليه.

أما عن أهم السمات الأسلوبية للوظيفة الإفهامية، فهي كالآتي(١٨):

١. **التأثير**: وترتكز فكرة التأثير على مبدأين متعاكسين هما: المفاجأة، والتشبُّع، أما المفاجأة فتكون من خلال توليد غير المنتَظَر من المنتظِر، وكلما كانت السمة

الأسلوبية غير منتظرة، كان وقع المفاجأة أكبر. أما التشبُّع، فيعني أن السمة الأسلوبية كلما تكررت في النص خفّ وقعها في الوجدان والانفعال النفسي.

٢. **الإقناع**: وهو من أهم أساليب التأثير في المتلقي، فالمرسل يحاول، من خلال النص، أو الخطاب أن يرسل مجموعة من الأفكار المنطقية التي يمكن أن تقنع ذلك المتلقي، وبالتالي، تحقيق الإفهام، فمن خلالها "يُسلِم المتلقي قياده للفكرة الموجهة إليه"(١٩).

٣. **الإمتاع**: وفيه يهدف المرسل إشباع المتلقي من خلال النص، أو الخطاب، فإذا ما أشبعت عواطف المتلقي، تحقق الإفهام والتأثير، ويحاول المرسل حشد أكبر عدد ممكن من الأفكار ذات الطابع العاطفي والوجداني، للتأثير في نفس المتلقي وعواطفه.

٤. **الإثارة**: وفيها يحاول المرسل أن يحرك عواطف المتلقي، ويستفز مشاعره بهدف تكوين رد فعل على الرسالة التي قصد المرسل إرسالها من خلال النص، أو الخطاب.

ويمكن توضيح آلية عمل هذه السمات من خلال المخطط التوضيحي الآتي:

وهناك سمات تتصف بها الوظيفة الإفهامية وهي تتعلق بكل من المرسل، والمرسل إليه، والرسالة نفسها، فمما يتعلّق بالمرسل، عليه أن يكون واعيًا لمضمون الرسالة التي يحاول إيصالها للمتلقي، ثم اختيار العناصر اللغوية، والآليات والوسائل المناسبة التي تضمن إيصال تلك الرسالة بشكل واضح، ومن أجل ذلك يسعى المخاطِب إلى أن تكون الرسالة مفهومة دالّة يحسن السكوت عليه. أما من جهة المرسل إليه، فالأصل أن يكون متهيّئًا لاستقبال الرسالة، ومن ثم، أن يكون لديه الكفاية والقدرة على تفكيك تلك الرسالة وفهم رموزها، وتبقى مسألة تقبّل الرسالة، من عدمه منوطة به. أما من حيث الرسالة، فيجب أن تتصف بالوضوح في التعبير، بحيث تكون بعيدة عن الغموض والتأويل، إضافة إلى الإيجاز المفيد، دون تطويل، حتى يتأتّى الإفهام على أتمّ حال، وذلك بناء على أن الفعل التواصلي يتأسس على مجموعة من المقاصد التي تحدد الغاية منه.

تجليات الوظيفة الإفهامية في سورة المزمل(٢٠):

إن القرآن الكريم فعل تواصلي مكتمل الأركان والعناصر، يهدف، في المقام الأول، إلى التأثير في حياة البشر، وتصحيح اعوجاجهم وانحرافهم عن السمت الصحيح الذي رسمه لهم دينم الحنيف، وعلى إثر ذلك بعث الله الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب السماوية، وأمر أهل العلم بالدعوة، وحث الناس على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ليعمّ التوحيد، ويرجع الناس إلى دين الله خاضعين مستسلمين لعظمته.

والله –عز وجل– يعلم، وهو الخبير بعباده، العليم بخلقه، عظم أمانة تبليغ رسالة الإسلام ومشاقّها، فكان أن حث النبي ﷺ على الأخذ بالعزيمة والهمّة في الدعوة إلى دينه، وأول ما نزل على النبي ﷺ مخاطبًا إياه هو قوله تعالى: (اقرأ) بصيغة الأمر، وفي هذا إشعار للنبي الكريم بأن الدين فعل قبل أن يكون قولًا، وكذا الحال مع آخر سورة نزلت على النبي ﷺ(٢١)، فقد أنزل في سورة العصر قوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)، وقد تجلّت "الإفهامية" في هاتين السورتين اللتين تمثلان بداية دعوة النبي ونهايتها بجلاء، من خلال أفعال الأمر، التي تفيد الإلزام والوجوب والبت في إيقاع الفعل.

أما سورة المزمّل، فقد حملت جملة من المعاني الجليلة، والتكاليف الثقيلة، والأوامر الواضحة، إلى النبي ﷺ وإلى عامة المسلمين من بعده، في كل زمان ومكان، وتتمثل أهمية هذه السورة الكريمة في تلك المرحلة التاريخية، في أنها كانت بلاغًا من الله –جل وعلا– لنبيّه ﷺ يوجهه، من خلالها، إلى حمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، وأن هذه الدعوة تحتاج إلى جهد وصبر، وأن طبيعة المرحلة القادمة تقتضي من النبي ﷺ أن يرمي عن كاهليه ما يزمّل به نفسه.

وقد تجلّت الوظيفة الإفهامية في سورة المزّمل من خلال النداء، وأفعال الأمر، واللواصق الدالة على الخطاب (ضمائر المخاطب، وتاء المضارعة التي تدل على المخاطَب)، كما هو مبيّن في الجدول الآتي:

آية		الصيغة	آية		الصيغة
١	يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّل	نداء	٢٠	إِنَّ رَبَّكَ	ضمير خطاب
٢	قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا	أمر		يَعْلَمُ أَنَّكَ	ضمير خطاب
٣	نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ	أمر		تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن	تاء المضارعة
٤	أَوْ زِدْ عَلَيْهِ	أمر		وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ	ضمير خطاب
	وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا	أمر		عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ	تاء المضارعة
٥	إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا	ضمير		فَتَابَ عَلَيْكُمْ	ضمير خطاب
٧	إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا	ضمير		فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ	أمر
٨	وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ	أمر		مِنكُم مَّرْضَىٰ	ضمير خطاب
	وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا	أمر		فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ	أمر
٩	فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا	أمر		وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ	أمر
١٠	وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ	أمر		وَآتُوا الزَّكَاةَ	أمر
	وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا	أمر		وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا	أمر
١١	وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي	أمر		وما تقدموا	تاء المضارعة
	وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا	أمر		لأنفسكم	ضمير خطاب
١٥	إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا	ضمير		تجدوه	تاء المضارعة
	شَاهِدًا عَلَيْكُمْ	ضمير		وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ	أمر
١٧	فَكَيْفَ تَتَّقُونَ	تاء			
	إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ	ضمير			

مما يُلاحظ، من خلال معطيات الجدول أعلاه، أن صيغة الأمر قد حازت على النسبة الأكبر مقارنة مع الصيغ الإفهامية الأخرى، حيث بلغت النسبة (٥٠٪)، ثم تلتها لواصق الخطاب التي بلغت نسبتها (٤٨٪)، وأخيرًا صيغة النداء التي بلغت نسبتها (٢٪)، علمًا بأن صيغة الأمر كانت في جُلّها موجهة إلى النبيّ ﷺ، وبعضًا منها كان موجَّهًا بصيغة الجمع إلى النبي ﷺ والصحابة وعامة المسلمين.

ويعود السبب في تفوق أسلوب الأمر على الأساليب الأخرى إلى أن مرحلة بداية الدعوة الإسلامية كانت مرحلة توجيه للنبي ﷺ، وتغيير في سلوكه، وتعليم لأحكام الدين الجديد وشرائعه، فاحتيج إلى هذا الأسلوب من أجل ذلك الغرض، وفيما يأتي تفصيل لصيغ الوظيفة الإفهامية الواردة في السورة الكريمة.

أولًا: النداء:

يعد أسلوب النداء من الأساليب المهمة ذات الفاعلية التواصلية، إذا بها يُبتدأ الكلام، وفي هذا المعنى قال أبو القاسم الزجاجي: "أول كل كلام النداء"(٢٢)، وبوساطتها يُطلَب من المتلقي أن يُقبل على المرسل، وبناء عليه، فإن النداء من أدوات التواصل اللساني المهمة، والنداء لا يوَجَّه إلا إلى المخاطب، فلا يمكن أن يتم النداء دون منادٍ مُرسل يوجه كلامه إلى متلقٍّ منادى، ويكون النداء، في هذه الحالة، "خطابًا يدور بين عنصرين هما متكلم ومخاطَب، والمنادَى يقع موقع ضمير المخاطَب"(٢٣).

لقد بدأت السورة الكريمة بصيغة النداء (يا أيها المزمل)، و"النداء أول فعل كلامي يقوم به المخاطب ليلفت انتباه المستمع، ويجعله مهيأ لتلقي الخطاب الذي يسعى إلى إيصاله إليه"(٢٤)، وجوهر النداء هو طلب إقبال المنادى، فهو وسيلة مباشرة من أجل إقامة صلة بين صاحب الخطاب والمنادى، ويتضمن جُملة من المعاني المتعلقة به، ففيه، على سبيل المثال، حثّ للمنادى على الالتفات والاهتمام بما سيأتي من الكلام، ثمّ إنه يقيم علاقة بين طرفين لأغراض متنوعة تُحدَّد بناءً على السياق الذي ترد فيه، كما أنّه يتضمّن لفت النظر إلى المنادى

نفسه في حال كونه محور ذلك الكلام[٢٥]، وقد أورد الزركشي قولاً عن الزمخشري في أن "كل نداء في كتاب الله يعقبه فهم في الدين"[٢٦].

وابتداء السورة بالنداء، فيه تنبيه واستحضار للنبي ﷺ؛ لتوجيه أمر له بقيام الليل، الذي كان فرضًا عليه وعلى المسلمين في بداية الدعوة، وقد تجلّت الوظيفة الإفهامية، في هذا النداء، من خلال بثّ رسالة إلى المتلقي، الذي يعدُّ محور هذه الوظيفة، بغية التأثير فيه، أو حثه على القيام بسلوك محدّد، لكن النداء لم يتكرّر؛ لأن النبيّ ﷺ وصحابته من بعده سيمتثلون لهذا الأمر الإلهي دون أدنى تلكؤ أو تردد، فلم يُحتج لتكراره في السورة الكريمة، فكان هذا النداء الوحيد في السورة كافيًا لتنبيه النبيّ ﷺ ولفت نظره إلى ما سيأتي من الأوامر.

ومما يزيد من قوة التأثير في هذا النداء، أنه جاء بأسلوب (يأيها)، ويبيّن لنا السيوطي بلاغة هذا الأسلوب، من ذلك "ما في (يا) من التأكيد والتنبيه، وما في (ها) من التنبيه، وما في التدرّج من الإبهام في (أيْ) إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد، لأنّ كل ما نادى له عباده...أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها"[٢٧]، ويُحمل ما قاله السيوطي على سبيل تسلية النبي ﷺ والربط على قلبه، لأن النداء فيه مسحة من التعظيم، في بعض السياقات التي يرد فيها، ورفع لمقام المنادى.

لقد شكّل النداء، منذ بداية السورة الكريمة، وظيفة مهمة في إنجاح العملية التواصلية بين الله –عز وجل– والنبي ﷺ، من أجل قيام النبي ﷺ بما فرضه الله عليه من الدعوة ونشر الدين على أكمل وجه، وقد استلزم ذلك استخدام أسلوب (يأيها) الذي نستشفّ منه التعظيم ورفع مقام النبي ﷺ.

ثانيًا: الأمر:

استخدم أسلوب الأمر في القرآن الكريم من أجل إقرار الشرائع وتثبيت العقيدة، وتوجيه المسلمين إلى منهج الإسلام في الإيمان والدعوة، والحث على الخيرات، والترغيب بفضائل الأعمال، ويُقصد به طلب إيجاد الفعل، وهو، أيضًا، "قول القائل لمن دونه: (افعل)"[٢٨]،

ويأتي كذلك لـ"طلب الفعل بصورة مخصوصة، على جهة الاستعلاء"[٢٩]، ومما لا شكّ فيه أن فعل الأمر لا يُسند إلا إلى المخاطَب، والأصل في أسلوب الأمر إلزام المتلقي بمضمون الأمر، وإحداثه في الحال أو المستقبل، ويكون له أثر في الواقع إن تحقق، وعندها يتحقق هدف المرسل ومقصده من الخطاب.

وقد ورد الأمر في سورة المزمّل بصيغتي (افعل) للمفرد، و(افعلوا) للجمع، وهو ما سمّاه العلماء بالأمر الصريح أو الحقيقي الذي يُفهم منه الحسم في الطلب والتشدد في وقوعه، ويكون الخطاب موجَّهًا من المخاطِب، وهو الله –جل وعلا– في هذا السياق، نحو المخاطَب، وهو النبي ﷺ والصحابة من بعده، أو المكذبين من أهل الكفر. وبناء عليه، فإن خطاب الأمر هو عملية تواصلية بين طرفين، يحاول أحدهما التأثير في الآخر بوساطة بعض الصيغ الأمرية التي تحمل قيمة توجيهية تأثيرية، ويعد ذلك من صميم الوظيفة الإفهامية التي قررها جاكبسون في نموذجه اللغوي التواصلي.

وكانت أفعال الأمر الموجهة إلى النبي ﷺ، في بداية السورة، تهدف إلى تعليمه بعض السلوكيات التي من شأنها أن تساعده على تحمل أعباء الدعوة، وكانت جلها تتعلق ببعض العبادات كقيام الليل، وترتيل القرآن الكريم، والخشوع في الدعاء، والتوكل على الله، والصبر على المكاره، ثم ترك المكذبين في غيّهم ليلاقوا الجزاء الأوفى يوم القيامة عند الله، ولم نلقَ، على سبيل المثال، أفعال أمر تتعلق بالمعاملات بين الناس مما شاع في السور المدنية، وذلك لأن السور المكية نزلت في مرحلة تربية النفوس، وتهذيبها.

إن اللغة العربية لغة إلصاقية؛ أي أنها تعتمد، في تشكيل بنيتها، وبيان معانيها، على سوابق ومقحمات ولواحق[٣٠]، وتقوم هذه اللواصق بوظيفة دلالية مهمة في أثناء تشكيلها لأبنية الكلمات، كتحديد العدد، والجنس، والزمن، وغيرها من التصنيفات الدلالية اللغوية، وما يهمّنا، في حدود موضوع البحث، هو ما يتعلّق بالمخاطَب والتأثير فيه.

تصنف أحرف المضارعة ضمن فئة السوابق؛ أي اللواصق التي تأتي في بداية الكلمة، أما الضمائر المتصلة فهي من اللواحق؛ أي اللواصق التي تأتي في آخر الكلمة، وفيما

يتعلق بأحرف المضارعة، فإنها تختص بتحديد ما يتعلق بالطرف الثاني من حيث العدد، أو الجنس، أو الحضور والغيبة، فـ(الهمزة) للمتكلم المفرد، و(النون) للمتكلمين الجمع، و(الياء) للغائب المذكر، و(التاء) للغائب المؤنث، والمخاطَب المذكَّر، وتنقلُ هذه الأحرف الفعل من دلالة الزمن الماضي إلى دلالة الحال. أما فيما يتعلق ببحثنا هذا فهو مورفيم (تاء المضارعة) الذي يوجَّه للمذكّر المخاطَب في إحدى حالتيّه، ومما ورد في سورة المزمل من الأفعال المضارعة الموجهة إلى المخاطَب (تتقون، تقوم، تحصوه، تقدموا، تجدوه)، وتتمثل فاعلية ورود تاء المضارعة في أنها تشكّل عملية تواصلية من المرسل (المخاطِب) إلى المتلقي (المخاطَب)، فهي تسير باتجاه محدد، ويكون الهدف من الخطاب في هذه الحالة هو إخبار المخاطَب بأن المخاطِب يعرف حاله في تلك اللحظة، وبناءً عليه، يؤدي ذلك إلى انتباه المخاطَب إلى فحوى الخطاب (الرسالة)، فيتأثر بما يرد فيه.

وقد وُجِّه الخطاب بوساطة (تاء المضارعة) إلى عدة أصناف من المخاطَبين، يبينه المخطط الآتي:

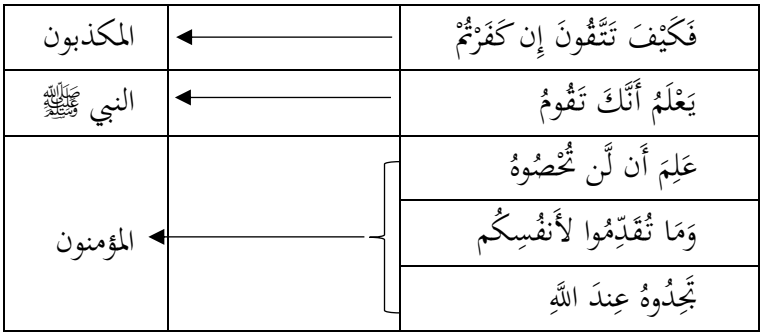

أما فيما يخص الضمائر، فقد تنوّعت في السورة الكريمة، وما يهمنا في هذا المقام هو ضمائر الخطاب التي تمثّلت بالضميرين المتصلين (الكاف)، و(التاء)، وقد تنوّعت هذه الضمائر بتنوع المخاطَب، فكان جلها موجهًا إلى النبي ﷺ (عليك، لك، ربك، إنك، معك)، ووُجِّه بعضها الآخر إلى المكذبين؛ أي الكفار (إليكم، عليكم، كفرتم).

وتتمثّل أهمية هذه الضمائر في أثناء العملية التواصلية بوصفها صيغة من صيغ الوظيفة الإفهامية ذات الهدف التأثيري في المتلقي من خلال توجيه الكلام المباشر له بوضوح ودون إلباس، فالطرف المقابل معروف لدى المرسل، وهذا المبدأ؛ أي التأثير في المتلقي، هو من صميم الوظيفة الإفهامية.

والملاحظُ أن الضمائر تنوعت ما بين الإفراد والجمع، فالإفراد ظهر في أثناء خطاب النبيّ ﷺ، وكان ضمير الخطاب في هذه الحالة هو (الكاف)، وذلك لأن الخطاب كان موجَّهًا إلى النبي ﷺ وحده، وكان هو محور الخطاب، وأما ضمائر الخطاب للجمع، فقد تنوعت كـ(الكاف)، و(التاء) المقرونتين بـ(ميم الجماعة)، وقد كان الخطاب موجَّهًا إلى المكذبين، تارة، الذين كذبوا بنبوّة الرسول ﷺ، وإلى المسلمين، تارة أخرى، حيث وُجِّه الخطاب إليهم في آخر السورة الكريمة.

خاتمة

لا تقوم العملية التواصلية بحق، إلا إن توافرت الأدوات اللغوية التي تُستثمر بأفضل صورة ممكنة من أجل إنجاحها، خاصة إذا غلب على الخطاب وظيفة لغوية محددة بعينها، كالوظيفة الإفهامية التي غلبت على سورة المزمّل، من خلال استعمال بعض الأدوات اللغوية كأسلوب الأمر، وأسلوب النداء، واللواصق الدالة على الخطاب، وهي كلها تجعل الخطاب يسير في خط واحد من المرسل إلى المتلقي بغية التأثير فيه. وقد توصل الباحث إلى النتائج الآتية:

- تُعدُّ الوظيفة الإفهامية من الوظائف اللغوية التي تؤدي دورًا مهمًّا في تشكيل الخطاب، وبيان مقاصده.
- جسّد التواصل بين الله جل وعلا مع نبيه ﷺ في سورة المزمل نموذج التابع والمتبوع بوساطة جُملة من الأساليب اللغوية كالنداء، وأفعال الأمر، ولواصق الخطاب، فالله هو المتبوع المستحق للربوبية، وهو الآمر الناهي، والنبي هو التابع المكلف بالدعوة والقيام بواجباته تجاهها، وقد ظهر ذلك من خلال سير الخطاب

باتجاه واحد من المرسل، وهو الله –جل وعلا–، نحو المتلقي، وهو النبي ﷺ من خلال العملية التواصلية.

- شغل أسلوب الأمر الحيز الأكبر من أساليب الإفهامية الأخر، وهذا يتناسب مع طبيعة المرحلة التي نزلت فيها هذه الآيات؛ أي بداية الدعوة الإسلامية، فاحتيج إلى أفعال توجه سلوك المسلم، وتحمله على تحمّل أعباء هذه الأمانة.
- إن عناية المتكلم بمقاصد الخطاب تدفعه إلى اتخاذ أفضل الأدوات اللغوية المتاحة التي يمكن بوساطتها إقامة عملية تواصلية ناجحة، يمكن، من خلالها، تحقيق تلك المقاصد.

الحواشي

(١) النساء: ٨٢.

(٢) انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن. ط١. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية. السعودية: مجمع الملك فهد. دت. ١٨٧٦/٥.

(٣) انظر: إفيتش، ميلكا: اتجاهات البحث اللساني. ط٢. ترجمة: سعد مصلوح؛ ووفاء فايد. المجلس الأعلى للقافة. ٢٠٠٠م. ص١٩٤. وكذلك: المهيري، عبد القادر: اللسانيات الوظيفية. دراسة في كتاب "أهم المدارس اللسانية". تونس: منشورات المعهد القومي لعلوم التربية. مارس. ١٩٨٦م. ص٤١.

(٤) من هؤلاء العلماء: كارل بوهلر، وكارل بوبر، ومالينوفسكي، وبريتون، وموريس، وهاليداي، وغيرهم.

(٥) ولد عام ١٨٩٦م في موسكو، من مؤسسي مدرسة الشكليين الروس، والنادي اللساني ببراغ، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونظّر للبحث اللغوي اللساني، وتوفي عام ١٩٨٢م. للمزيد انظر: المصري، عبد الفتاح: رومان جاكبسون العالم اللساني. اتحاد الكتاب العرب. العدد ١٢٠. نيسان. ١٩٨١م. ص ص ٣٠–٤٦.

(٦) صادق، فاطمة الزهراء: التواصل اللغوي ووظائف عملية الاتصال في ضوء اللسانيات الحديثة. مجلة الأثر. العدد (٢٨). جوان. ٢٠١٧م. ص٥٦.

(٧) جاكبسون، رومان: قضايا الشعرية. ترجمة: محمد الولي؛ ومبارك حنون. ط١. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. المغرب. ١٩٨٨م. ص٢٧.

(٨) نوحّد، في دراستنا هذه، بين مصطلح "النص"، ومصطلح "الخطاب".

(٩) إيخنباوم وآخرون: نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلانيين الروس. ترجمة: إبراهيم الخطيب. ط١. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. لبنان. ١٩٨٢م. ص٨١.

(١٠) عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية. ط١. مكتبة لبنان ناشرون. ١٩٩٤م. ص٢٣٥.

(١١) انظر: بومزبر، الطاهر: التواصل اللساني والشعرية. ط١. منشورات الاختلاف. الجزائر. ٢٠٠٧م. ص٣٩.

(١٢) الشهري، عبد الهادي: استراتيجيات الخطاب. ط١. دار الكتاب الجديدة المتحدة. بيروت. ٢٠٠٤م. ص٣٢٢.

(١٣) الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون. ط٧. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٩٨٨م. ٧٦/١.

(١٤) التوحيدي، أبو حيان: البحر المحيط. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر. ١٩٩٢م. ١٤٤/١.

(١٥) الشهري، عبد الهادي: استراتيجيات الخطاب. ص٣٢٤.

(١٦) سلمان، طلال: مستويات السرد الوصفي القرآني. تراث النجف. العدد (٢). ١٤٣٤هـ. ص٣٠٢.

(١٧) انظر: جاكبسون، رومان: قضايا الشعرية. ص٢٩.

(١٨) بومزبر، الطاهر: التواصل اللساني والشعرية. ص٤٠ وما بعدها.

(١٩) عبد المطلب، محمد: البلاغة والأسلوبية. ص٢٣٥.

(٢٠) سورة مكّية، آياتها عشرون، وترتيبها في المصحف الشريف ثلاثة وسبعون، أما من حيث زمن النزول فهي الثالثة بعد سورتي العلق والقلم، ورد في سبب نزولها عن سعد بن هشام قال : قلت لعائشة أنبئيني عن قيام رسول الله -ﷺ- قالت : ألست تقرأ هذه السورة (يأيها المزمل)؟ قلت بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرا ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فرضه"(٢٠)، والمزمل هو المتغطي بثيابه، وهو وصف للنبيّ ﷺ لما أنزل الله عليه الروح الأمين جبريل (عليه السلام)، فاشتدّ الأمر على النبيّ ﷺ، فأتى عائشة وقال: زملوني زملوني.

(٢١) روى مسلم عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ: تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنْ الْقُرْآنِ نَزَلَتْ جَمِيعًا قُلْتُ نَعَمْ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ قَالَ صَدَقْتَ". مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم. كتاب التفسير. ط١. دار طيبة. ٢٠٠٦م. ١٣٧٦/٢.

(٢٢) الزجاجي، أبو القاسم: اللامات. تحقيق: مازن المبارك. ط٢. دمشق: دار الفكر. ١٩٨٥م. ص١٠٩.

(٢٣) البشير، بشر، والذبحاوي، علي: أسلوب النداء في شرح السيرافي على كتاب سيبويه، قراءة في ضوء نظرية التواصل اللساني. جامعة بابل-كلية التربية والعلوم الإنسانية. مجلة العلوم الإنسانية. مجلد٢٥. العدد٢. حزيران. ٢٠١٨م. ص٣١٦.

(٢٤) عيسى، تومي: الأفعال الكلامية التوجيهية: مقاربة تداولية في نماذج من سورة البقرة. جامعة محمد خيضر بسكرة-كلية الآداب واللغات-مخبر اللسانيات واللغة العربية. العدد (٧). جانفي. ٢٠١٧. ص٢٢٤.

(٢٥) انظر: فارس، أحمد: النداء في اللغة والقرآن. ط١. دار الفكر اللبناني. ١٩٨٩م. ص١٦٠.

(٢٦) الزركشي، محمد بن بهادر: البرهان في علوم القرآن. دار المعرفة. بيروت. ١٣٩١هـ. ١/٢٢٤.

(٢٧) السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن. ط١. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية. مجمع الملك فهد. السعودية. د.ت. ٥/١٧٢١.

(٢٨) الجرجاني، علي بن محمد: كتاب التعريفات. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٨٣م. ص٣٧.

(٢٩) السامرائي: معاني النحو. بيت الحكمة. جامعة بغداد. ١٩٩٠م. ٤/٤٠٩.

(٣٠) انظر: النجار، أشواق محمد: دلالة اللواصق التصريفية في اللغة العربية. ط١. دار دجلة. ٢٠٠٦م. ص٤٩ وما بعدها.